ركائز الدعوة في القرآن الكريم

(الداعية - الدعوة - الأسلوب)

تأليف:

محمد ابراهيم شقره

روائع الفكر الإسلامي

نخَاطبُ العَقلَ والقَلبْ





من فقه القرآن «١»

ركائز الدعوة في القرآن

تأليف

محمد ابراهيم شقره

المكتبة الاسلامية

عمّان - الأردن

الطبعة الأولى
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

رقم الايداع ١١٦/٢/١٩٨٣

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُل هَٰذِهِ سَبِيلِي أدعوا إلىٰ الله عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ الله وَمَا أنَا مِنَ الْمُشرِكِين ﴾

يوسف (١٠٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ . ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ . ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ، وقولوا قولاً سديداً ، يصلح لكم أعمالكم ، ويغفر لكم ذنوبكم ، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾ .

أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

بين يـدي البحث

القرآن سـجل خالد

القرآن الكريم هو السجل الخالد الـذي يحوي في سـوره وآيـاته كـل قضايـا الإنسان ، في حـاضره ومستقبله ،وقـد ظل الإنسان يعيش بلا أمل ولا هدف ، وسلخ من عمره فوق الأرض آماداً طويلة ، وهو يحتطب من هموم الحياة وآلامها ما يعجز ضعفه عن احتماله ، ويصنع من متاعب دنياه وأضغاثها قلائد أفكاره ، ويصوغ من كده فيها مجداً لم يحقق له سعادةً ، ولم يضع له عـلى طريقه علامة واحدة ترشده إلى غاية ، حتى هبط الوحي الأمين بالقرآن الكريم على الرسول العظيم ، فكان التحول الكبير لهذا الإنسان ، فاستقامت خطاه على درب الحياة ، ومشى فوق الأرض التي اتخذها موطناً في غبطة وعافية ، وشاعت في صـدره بواعث الحب والرجاء .

دعوة القرآن إلى الالتزام

وأول ما حملته آيات القرآن وسوره للإنسان ، دعوتَـه إلى الالتزام بما فرضته من أحكام مستنبطة من الأوامر والنواهي ، التي اشتملت عليها ، بكل مراتبها ومعانيها ، بدأً من الوجـوب إلى

الندب إلى التحريم إلى الكراهة وأخيراً الإباحة ، وبكل الصيغ التي تفيد الأمر والنهي ، سواءٌ ما كان منها إنشاءً وما كان خبرا ، وهـذه الأوامر والنـواهي في مجموعهـا ، تخضع لمفهـوم الثـواب والعقاب ، وهو مفهوم الجزاء القائم على العدل المطلق ، ينتظر الإنسان في الدار الآخرة .

عناية القرآن بالدعوة :

عني القرآن الكريم بأمر الدعوة عنايةً فائقة ، وأوجب على الأمة أن تنتدب منها جماعة لتقوم بمهمة الدعوة إلى الله ، بالأمـر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وبيان أوجه الخير التي لا تستقيم حياة الأمة إلا بها فقال : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعـون إلى الخير ويـأمـرون بـالمعـروف ، وينهـون عن المنكـر وأولئـك هم المفلحون ﴾ . آل عمران ـ ١٠٤

ركائز الدعـوة :

ووضعت آياته الركائز الأساسية لها ، وليس ذلـك بخافٍ على من يقرأ القرآن ، بتدبر فكرٍ وإمعانِ نظر ، وهذه الركائز ثلاث وهي : الداعية ـ والدعوة ـ والأسلوب ، وسنفصل القول في كل ركيزة تفصيلاً يعتمد الآية القرآنية وحدها التي تتصل بها .

أولا : الداعيــة

لا شك أن الدعوة تحتاج إلى من يحملها ، إذ لا يمكن لها أن تتحرك وحدها ، وإن كانت لدعوة الإسلام خصائص تمتاز بها من سائر الدعوات التي ظهرت على وجه الأرض ، ما كان منها وحياً وما كان منها غير وحي .

ومن أبرز هذه الخصائص (الحركية الإيجابيـة) ، التي لا زالت الدعوة الإسلامية تتحرك بها منذ أن تقلص ظل الإسلام عن الأرض .

ويجب أن يكتسب الداعية من خصائص الدعوة ، ما يقدره على أن يواكب هذه (الحركية الإيجابية) ، وإلا قعدت به قدرته عن حمـل الدعـوة حملاً إيمـانياً ، ينيله رضـوان الله في الآخرة ، والسؤدد والرفعة في الدنيا ، وإذ الأمر كذلك ، فلا بد من توفر صفات فيه ، كي يكون قادراً على حمل الدعوة إلى الله

الصفة الأولى : ـ الاستعداد الفطري أو ما يسمى بالموهبة .

فليست الدعوة فناً مكتسباً من الفنون التي تشيع بين الأفراد والجماعات ، ولو كانت كذلك لما عرف الناس شيئاً عن الدعوة ، ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم قادة الدعاة وسادتهم ، وبهم وعلى أيديهم انتشرت الدعوة في آفاق الأرض ، وظلت رايتها تخفق فوق ربوعها ردحاً طويلاً من الزمن .

وهذا شيءٌ لا يعلمه إلا الله وحده في سرائر الناس ، فإذا علمه أظهره بتيسير كلِّ سبيلٍ إلى إظهاره ، فيكون الاصطفاء منه للداعية ، وأعظم الدعاة هم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً ، وهم الصفوة المختارة المجتباة ، الذين هيّأهم الله لحمل رسالاته والدعوة إليها ، وفي هذا يقول القرآن الكريم : ﴿ **وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكنّ الله يجتبي من رسله من يشاء** ﴾ . آية (١٧٩) سورة آل عمران

وتوكيداً لهذا المعنى ، يجعل مناط الرسالة المكلف بإبلاغها ، والدعوة إليها ، مما اختص نفسه الشريفة بعلمه ، فلا يطلع على ذلك أحداً من خلقه ، إلا بعد أن يُرى الداعيةُ حقيقةً ماثلة أمام الناس جميعاً وفي هذا يقول : ﴿ **الله أعلم حيث يجعل رسالته** ﴾ . آية (١٢٤) سورة الانعام

وهذه الموهبة لا تظهر للناس إلا بإذن ربها ، فإذا كان اختيار الله للداعية ، إن كان نبياً مُرسلاً من عنده ، كان الإذن بإبلاغ الرسالة التي أُمر بإبلاغها ﴿ **وما كان لرسول أن يأتي بآية إلاَّ بأذن الله** ﴾ . آية (٧٨) سورة المؤمن . فتظهر الموهبة ويتداعى الناس الذين تسقط الغشاوة عن قلوبهم إليها في رجاءٍ وصدق . أما الذين يمسكون على غشاوة قلوبهم بأيديهم ، فإنهم يظلون في منأى عنها .

ومشيئة الله عز وجل تقضي أن تقع الخلائق كلها في قبضتها ، ومنها موهبة الداعية ، فلا تسلك الناس في نظامها إلا إذا شاءت ، وهذه الموهبة تظل منتظرة الإذنَ من ربها أن يُظهرها ، أو يُلهمها أن تظهر ، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة : ﴿ **ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا** ﴾ . آية (٥١) الفرقان

وهذه الآيات البينات وما يشابهها تتحدث عن الموهبة التي لا بد أن تكون أول ما يجب أن يتصف به الداعية .

الصفة الثانية : ـ المعرفة أو الفقه

والمعرفة هي التي توجد القدرة لدى الداعية ليخاطب الناس بالدعوة وإليها ، وهذا يكون تارة بالتبشير ، وتارةً يكون بالإنذار ، وبهما بعث الأنبياء ، ووصفوا بقول الله عز وجل في وصف رسله : ﴿ **رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل** ﴾ . آية (١٦٥) النساء

ولا يكون التبشير والإنذار إلا بالفقه الصحيح القادر على ربط قلوب الناس بهما ، وإذا نال الأنبياء هذا الوصف بالوحي ، فعلى الدعاة أن ينالوه بمدارسة هذا الوحي وتعلمه ، وأخذ نفوسهم به جملةً وتفصيلاً .

وقد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم ، تتحدث عن هذا الوصف ، كما في قوله سبحانه : ﴿ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ﴾ . آية (٤٨) الانعام وآية (٥٦) الكهف

ولا يبلغ الداعية قلوب الناس إلا إذا كان عارفاً بالطريق السالكة إليها ، بصيراً بالسبيل التي تصله بها .

ويضع القرآن الكريم القدوة في المكان الأسمى ، وفي شخص النبي الكريم ليكون ماثلاً في ذهن الداعية وقلبه ، شاخصاً أمام ناظريه وهو يسير بالدعوة بين الناس ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أُسوةٌ حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ﴾ . آية (٢١) الأحزاب

وحتى لا يُفاجأ الداعية بالفتنة ، وما يعرض له من مصائب ، يُذكّرهُ القرآن بقوله تعالى : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساءُ والضراءُ وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ﴾ . آية (٢١٤) البقرة

وللداعية مثلٌ في الأنبياء وهم يتلقون الوحي بأخذ الميثاق عليهم ، فإن أصابه شيءٌ من البلاء فهو قد أصـاب الأنبياء من قبله ، ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى آبن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾ . آية (٧) الأحـزاب

وهؤلاء المذكورون في الآية هم أولو العزم ، الذين صبروا على أذى أقوامهم أشد الصبر ، وتحملوا منهم ما لم يتحمله غيرهم من الأنبياء ، فاستحقوا بذلك أن يكونوا في منزلة يتأسى الناس في الصبر بها ، حتى النبي الأكرم محمد صلوات الله وسلامه عليه ، مقدم الرسل والأنبياء يناله من الأذى الكثير ، فيصبر كـما صبر إخوانه ذوو العزم ، فيخاطب القرآن الدعاة في شخصه فيقول : ﴿ فآصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾ . آية (٣٥) الأحقاف

فيكون هو القدوة التي جمعت فضائل من قبلها من الأنبياء جميعاً .

والاستهزاء والسخرية لا يحسن بالداعية أن يكونا سبباً في صده عن الدعوة ، وآنقطاع رجائه فيمن يهزأون ويسخرون ، فهذه سنة قد مضت في الأمم السالفة خرجت بها على أنبيائها ، فما صدهم صلوات الله عليهم وسلامه ذلك عن الدعوة ، وما أخلد بهم

إلى الأرض ، وما كان ليخطر ببالهم هدا ، وهم يتصدون للدعوة في أحلك الظروف ﴿ **ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين ، ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون** ﴾ . آية (١٠ ، ١١) سورة الحجر

فإذا قرأ الداعية هذه الآيات ، حفزه الإيمان إلى خوض اليأس للوصول إلى الرجاء ، وهكذا فإننا واجدون أن هذه الآيات وأمثالها في القرآن الكريم ، تعرض للحديث عن القدوة عرضاً يفرض على الداعية أن يتمثلها في كل أحواله ، يسره وعسره ـ رخائه وشدته ـ ليقتدر على نيل الحقيقة التي يسعى إلى إظهارها للناس وجمعهم عليها .

ثم إن الله لا يبعث رسولاً بإذنه إلا بآية ، والآية شيءٌ من المعرفة التي لا بد من توفرها عنده ، ليتمكن من دعوة الناس على هدى وبصيرة ، إذ كيف يمكن لنبي أو رسول أن يأتي بآية ثم لا يكون قادراً على وضعها موضعها وهو يدعو الناس .

إذاً فلا بد من المعرفة الداعية الهادية ، التي يبصر بها الآية بصراً عميقاً ، ويبصر أيضاً كيفية مخاطبة الناس بها ، وهذه هي المعرفة أو الفقه الذي لا بد منه للنبي أو الرسول ﴿ **وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله** ﴾ . آية (٧٨) المؤمن ، ﴿ **قل هـذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة** ﴾ . يوسف ـ ١٠٨

وإذا كان الأنبياء قد مضوا بهذه المعرفة التي كان يسددهم بها الوحي ، فمن جاءوا على أعقابهم من الدعاة لا يحسن بهم ، بل لا يكونون قادرين على حمل الدعوة إلا بهذه المعرفة ، وهي فيهم لا تكون إلا بالكسب والمعاناة المدركة لكل المعارف ، التي يحتاج إليها الداعية وهو يدعو الناس إلى الله .

والأنبياء جميعاً بعثوا في أقوامهم بالآيات الواضحات ، والبينات الهاديات ، فصدق من صدق ، وكذب من كذب ﴿ **ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات** ﴾ . آية (٣٢) المائدة

وأعظم ما دعا إليه الأنبياء هو توحيد الله عز وجل في ربوبيته وألوهيته وصفاته ، وهو أعظم قمم المعرفة الإنسانية ، التي ترقى من فوقها إلى ملكوت العرش ، لتصل نفسها به وهي فوق تراب الأرض ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾ . آية (٢٥) الأنبياء

وإذا لم تستو حقيقة التوحيد على سوقها في نفوس الدعاة عجزوا عن دعوة الناس إلى قواعد الإسلام وأصوله الكلية الأخرى ، وفشلوا في وصل الناس بمسار الدعوة الصحيح ، فالتوحيد هو القوة المحركة الدافعة للداعية .

ولا شك أن الدعوة الصحيحة لا يدركها إلا العاقلون ،

فإذا غامت صورتها في عقولهم وقعوا تحت سيطرة المألوف ، الذي لا يقوم على قاعدة أو تصور صحيح ، لذا كان لا بد من تهيئة نفوس الدعاة وعقولهم لمخالفة المألوف ، الذي جرى عليه الناس في معارفهم ، وإن قامت في وجوههم سدود التحدي والاستكبار ، لصدِّهم ، والفَتّ من صبرهم وقدرتهم ﴿ **أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون** ﴾ . آية (٨٧) البقرة

وإذا كان هذا هو شأن الأنبياء مع أقوامهم كما يصوره القرآن ، فما ينتظره الدعاة لا يقل خطراً عما وقع للأنبياء ، مع لحظ الفارق بين تحمل الأنبياء وبين تحمل الدعاة ، والدعاة قدوتهم الأنبياء في قوة التحمل والصبر وفقه الدعوة .

وأمضى سلاح الأنبياء هو العلم ، المجموع في الكتاب ، وعلى أساسه أخذ الله منهم الميثاق ، لأنه به تتضح الطريق وتستقيم الجادة ، وبه تكون النصرة والتصديق لعمل الدعاة في كل زمان ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين** ﴾ . آية (٨١) آل عمران

الصفة الثالثة : العمل بمقتضى العلم :

فالداعية لا يكون له التأثير القوي فيمن يدعوهم إلا إذا كان هو الصورة العملية لكل ما يدعو الناس إليه ، من غير تفريط أو إهمال فيه ، آخذاً نفسه بإقامتها على العلم الذي علمه كما قال تعالى ﴿ **فاستقم كما أُمرت** ﴾ لئلا يكون كلامه حجة ظاهرة عليه ، ثم مع الأيام لا يصبح لكلامه أي تأثير في الناس ، فيجد نفسه فريدا يَذوى قلبه حسرات ، ولا يقدر على شيء يواري به عيبه عن أعينهم ، فقول الداعية وعمله يشتركان معاً في قلب المفاهيم والتصورات الخاطئة التي رضخ لها الناس زماناً طويلاً ، وهذه الصفة نراها ظاهرةً ظهوراً كاملاً في قوله تعالى : ﴿ **ومن أحسن قَولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين** ﴾ . اية ٣٣ فصلت وفي قوله تَعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون** ﴾ . الصف ٢/٣

ومقتضى هذه الصفة أن لا يكتم الداعية شيئاً مما يعرف من العلم ، فإبلاغ العلم شيء من العمل به ، وإن لم يفعل كان كاتماً لعلمه غير عامل بمقتضاه ، فيحق عليه قول الله سبحانه : ﴿ **إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيّناه للناس في الكتاب أُولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون** ﴾ . آية (١٥٩) البقرة

الصفة الرابعة : الصبر والشجاعة

والدعوة لا يحملها الجبناء العاجزون ، وإنما كتب الله أن يحملها الشجعان القادرون ، فطريق الدعوة مملوءة بالمخاطر ، محفوفة بالمخاوف ، وحمل الدعوة ثقيلٌ لا يقوى عليه إلا من كان مهيأ لذلك ، والصبر هو أملك وسيلة في يد الداعية ، يقوى بها على مواصلة حمل الدعوة ، حتى يلقى الله عز وجل ، وهذا ما وهبه الله رسله وأنبياءه صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً ، وقضوا عليه ﴿ **ولقد كُذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كُذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا** ﴾ . آية (٣٤) الأنعام

والصبر لا يكون له فترة وجيزة ، ثم ينقطع بالداعية ، ويحبسه اليأس عن السعي إلى إبلاغ الدعوة ، بل إنه يظل سلاحه حتى يتم له النصر ، وهذا ما تقرره الآية ﴿ **وأوذوا حتى أتاهم نصرنا** ﴾ وأقوى مراتب الشجاعة أن يصبر الداعية على الأذى ، حتى يقطف ثمار النصر ، وهذه الحقيقة القرآنية يغفل عنها كثير من الدعاة ، وبخاصة في هذه الأيام العصيبة التي تصطخب أمواج ظلمتها ، وتقهر الضعفاء الجبناء .

والصبر لا يظهر في حالة الرخاء والدَّعة ، وإنما في حالة الشدة والتعب ، وبه يكون التمييز بين الأقوياء الصادقين في

الدعوة ، وبين الضعفاء الكاذبين فيها ﴿ **ولقد فتنا الذين من قبلكم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين** ﴾ . آية (٣) العنكبوت

والشجاعة في أمر الدعوة ليست كلاماً يردده اللسان ، وإنما هو تصور كامل واضح للدعوة ، ثم احتمال لكل بلاءٍ يصيب الداعية ﴿ **ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله** ﴾ . آية (١٠) العنكبوت

ثم إن الصبر على البلاء ليس عنوان الشجاعة على الداعية فحسب ، بل هو تمحيص له ، وإخراج كل شائبة من قلبه وعقله لا تتفق مع طبيعة الدعوة ، وتنقية نفسه من كل ما يعلق بها من كل شيء ينافي الحق الذي قامت عليه الدعوة ، ﴿ **وليمحص الله الذين آمنوا** ﴾ . آية (١٤١) آل عمران

والغاية المنشودة التي يسعى الداعية للوصول إليها هي الجنة ، والجنة ليست سلعة رخيصة تنال بالنوم العميق ، واللقمة المريئة ، والشربة الهنية ، إن الجنة سلعة الله الغالية ، فلا ينالها من الدعاة إلا المثابرون الأيقاظ ، الذين لا يجدون سعادتهم ، ولا يستمرءون حياتهم إلا في الجهد الباذل ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين** ﴾ . آية (١٤٢) آل عمران

ثم إن للدعاة في سير الأنبياء والمرسلين ، ما يدني لهم النهايات ، وينيلهم الطمأنينة السابغة ، لما يجدون فيها من تضحيات وصبر على المشقات ، وقبول لكل ما يصيبهم من البلاء ، وكل أولئك عنوان ضخم على الشجاعة والقوة في حمل الدعوة ﴿ **وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرنَّ على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون** ﴾ . آية (١٢) إبراهيم

والصبر هو وصية الأشداء الأقوياء لأبنائهم ، بعد أن يكونوا قد ذاقوا هم حلاوته ، ونالوا من لذته الشيء الكثير ، فيرون بعد ذلك أنه من الإثم والخيانة أن يمنعوا ذلك عن أبنائهم ، فإن فعلوا ذلك فهو أنانية لا يحسن بالدعاة أن يتصفوا بها .

كما أن الدعوة ميراث يجب أن يقوم عليه الأبناء بعد الآباء ، من غير تفريط ولا تخاذل ، كل ذلك جاء في وصية لقمان لابنه ﴿ **يا بني أقم الصلاة وأمُر بالمعروف وانْهَ عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور** ﴾ . آية (١٧) لقمان

ثانيـاً ـ الدعـوة

قلنا : (إن الدعوة ليست فناً مكتسباً من الفنون التي تشيع بين الأفراد والجماعات ، ولو كانت كذلك لما عرف الناس شيئاً عن دعوة الحق) ودعوة الإسلام ليست كسائر الدعوات التي ظهرت وآختفت ، أو لا زالت ظاهرة أو هي بين الخفاء والظهور ، سواء ما كان منها وحياً أم غير وحي ، فدعوة الحق فيها من عناصر البقاء والاستمرار ما ليس في سواها ، كما أن فيها من عناصر التأثير والاستقطاب ما ليس في غيرها ، فاستحقت بذلك أن تكون سيدة الدعوات ، وأن تكون هي الدعوة التي يختص الله بها نفسه الشريفة ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ . آية (١٩) آل عمران

فكانت هذه النسبة الشريفة العظيمة رداءً عظيماً لها ، أغناها عن كل رديءٍ سواه ، وصانها من الضياع والتبديل ، وهذه أول صفة من صفات الدعوة ، التي يراد لها النجاح والتأثير ، وهذه الصفة وحدها لا تكفي في نجاح الدعوة وتأثيرها إذا لم يجتمع إليها صفات أُخر .

الصفة الأولى : الحفظ الدائم : ـ

فدعوة لا تحفظ أحكامها وشرائعها دعـوة ذاهبة ، تسـرع إليهـا يد الفنـاء والضياع ، وتصبح تاريخـاً ترويـه الأجيال عن الأجيال ، ومع مرور الزمن وتقادم الأعوام تعتبـر نسياً منسيـاً ، وهذا ما حدث فعلاً لكل الدعوات التي ظهرت حتى يومنا هذا ، باستثناء دعوة الإسلام ، وللقرآن فضل ظاهر على الدعوات وهو : أنه حفظ طرفاً من سيرتها لتبقى عبرةً قائلة لكل الأجيال المتعاقبة : إن يد الإسلام ستظل تطوق أعناقها الدهر كلّه ، رغم أن الكثير منها لا يؤمن بالإسلام .

وهـذه الصفة بـارزة في القرآن بـروزه نفسـه ، فليس في استطاعة أحد من الناس ، مهما بلغت عداوته للإسلام أن يدعي أن القرآن قد انتقص شيئاً رغم مرور القرون العديدة عليه ، بل إنه ليس بقادر أن يقول : إنه ليس للقرآن جدةٌ دائمة لا تبلى على الأيام ، وهذه الصفة مذكورة في قوله عز وجل : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ آية (٩) الحجر ، وبها تظل أحكام الدعوة وشرائعها حاضرة في أذهان الدعاة ، كلما دعت الحاجة أخذوا منها ما شاءوا لما شاءوا ، مما يعرض إليهم في أثناء دعوتهم الناس .

والدعوة لا تؤدي دورها الصحيح القوي ، إلا إذا كانت مبادؤها وشرائعها محفوظة حفظاً يرد عنها الباطـل ، ويدرأ عنهـا

السوء ، ولا يتطرق إليها به الشك ، ولا يقوى على مناهضتها شيء مما عند أهل الباطل في عقولهم وصدورهم ، وهذا ما تقرؤه في قوله سبحانه وتعالى عن القرآن : ﴿ **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** ﴾ . آية (٤٢) فصلت

ولا تكون صفة الحفظ ظاهرةً إلا إذا كانت مبادىء الدعوة وشرائعها منسجماً بعضها مع بعض ، فلا اختلاف ولا تناقض ، وهذا شيء لا يقوى عليه العقل البشري مهما أُوتي من الإحكام والذكر ، فإن النسيان صفة من صفات الإنسان ، وهي صفة نقص ، لا بد وأن تظهر فيما يقول أو يفعل ، ولا تكون المبادىء والشرائع منسجمة بلا تناقض ولا اختلاف ، إلا إذا كانت من خالق الإنسان ، ومدبر أمره ، وفي هذا المعنى يقول الله : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً** ﴾ . آية (٨٢) النساء

وإذا كانت مبادىء الدعوة وشرائعها ليس في طبيعتها القدرة على الصمود ، ومقاومة كل غريب لا يتفق معها ، فهي مبادىء وشرائع لا تصلح أن تكون جسراً بين الدعاة وبين الناس ، ولا تكون نائية عن يد الفناء والتبديل والتغيير ، وهذا أمر يجب أن تبرأ منه الدعوة ﴿ **واتلُ ما أُوحي إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته** ﴾ . آية (٢٧) الكهف

الصفة الثانية : الإحاطة والشمول :

وإذا كانت الدعوة لا تلبي حاجات البشر تلبية كاملة ، وتضع الإنسان وجهاً لوجه أمام ضروراته ، بحيث تقوم عليه الحجة ، فلا يملك إلا الاستجابة الراغبة ، والخضوع المطلق ، فهي دعوة ناقصة قاصرة ، لا تصلح لبناء حياة الإنسان ، ولا يقدر بها الدعاة على مخاطبة الناس وإقناعهم بالدخول فيها ، والأيلولة إليها بعد طول عناء وشدة في البحث عن شيء يطمئنون إليه .

إذاً فلا بد أن تكون شرائع هذه الدعوة وأحكامها محيطةً بكل حاجات الإنسان ، ولكي تكون كذلك ، لا بد وأن تعرف هذه الحاجات معرفة تامة ، فتكون هذه الشرائع محيطة بحاجات الإنسان أينما وجد ، وعلى أي حالة يكون ، وهذا أمر لا يدركه العقل البشري القاصر علمه على المشاهد المحسوس ، بل ربما يكون قاصراً عن ذلك أيضاً ، وإنما يدركه العليم الخبير ، الذي يعلم السر في السموات والأرض ، ويعلم من جملة ما يعلم حاجات الإنسان الخافية عن الإنسان نفسه ﴿ **قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض** ﴾ آية (٦) الفرقان ، فيسخرها له ، ويدنيها منه ، استخلافاً طائعاً .

ولا تكون الدعوة محيطة بحاجات الإنسان في كل زمان ، وعلى أي حالة يكون إلا إذا كانت كاملة ، لا تحتاج إلى شيء يتمها

﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ . آية (٣) المائـدة

وكمالها لا يكون إلا بتصديق أحكامها ، ومطابقتها لواقع الإنسان المتفق مع الفطرة السوية ، وهذا هو قوله عز وجل : ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته ﴾ . آية (١١٥) الانعـام .

وهذه الصفة لا تكون ظاهـرةً إلا باعتـراف صريـح ، أو ضمني ، لا من أولياء الدعوة ، بل من أعدائها أيضاً ، وهذه قوة في الصفة تعدل في الأهميـة الصفة نفسهـا ، إذ لا تكون كـاملة واضحـةً مؤثرة إلا بهـا ، وكما قيـل : والفضل مـا شهـدت بـه الأعداء ، ويسجل القرآن هذا الاعتراف الضمني باعتراف أهل مكة بالقرآن من حيث هو ، ﴿ وقال الذين كفروا لولا أُنزل عليه القرآن جملةً واحدة ﴾ . آية (٣٢) الفرقـان

فيـأتي الرد عليهم عقيبـه قـويـاً ، بـأن هـذه الصفـة أي الإحاطة ، إنما تتم بالتدرج لأمر يتعلق بشخص الـداعية الأول صلوات الله وسـلامه عليـه ﴿ كذلـك لنثبت به فؤادك ورتلنـاه ترتيلا ﴾ . آية (٣٢) الفرقـان

وهكذا نجد القرآن الكريم يقرر هذه الصفة ، ويبرزها ،

من خلال آياته البينات لتظل منطلقاً ثابتاً للدعاة ، يرون من خلالها سبل الدعوة واضحة بينة .

الصفة الثالثة : الملاءمة لكل زمان ومكان :

وإذا كانت الدعوة لا تصلح لاستقطاب الناس وجمعهم على مبادئها ، وأن تحمل لإبلاغها إلا إذا توفرت فيها صفة الحفظ الدائم والإحاطة ، فإن ملاءمتها لكل زمان ومكان صفة يجب توفرها في هذه الدعوة ، والملاءمة لا تعني أن تكون الفروع والجزئيات ملائمة ومطابقة لحاجات الإنسان المستجدة ، التي تختلف باختلاف الزمان والمكان ملاءمة كُلية ، فهذا شيء يتنافى مع طبيعة دعوة الحق الخالدة ، فقد جاءت الدعوة بأصولٍ وقواعد كلية ، يمكن أن تنزل عليها الحوادث المستجدة (الفروع والجزئيات) ، فتستنبط أحكامها في أطار الأصول والقواعد الكلية ، وبهذا الاستنباط يكون استيعاب الأصول للفروع ، فلا يشذ أصل ولا فرع عن هذه الصفة ، وتظل الدعوة سائرة بقوة تؤدي دورها كاملاً غير منقوص .

وهذه الصفة لا تتحقق للدعوة ، إلا بتيسير فهمها ، وسهولة استيعاب العقل أحكامها ، وهذا ما يشير إليه القرآن بقوله : ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مُدَّكِر ﴾ . آية (٢٢/١٧) القمر

فتبقى الدعوة سهلة الفهم ، يرتادها المجتهدون في كل زمان ومكان ، يعرضون الحوادث عليها ، وينزلون الوقائع على أصولها وقواعدها الكلية ، ولا يرتابون في صدق موافقتها للحق ، ما دام أنهم قد بذلوا الجهد في الوصول إلى المسائل المستنبطة .

ثم إن هذه الصفة لا تكون مطابقة للواقع ، إذا لم يستطع المجتهد أن يجد في أحكام الدعوة وشرائعها ما يقتدر به على مواجهة الوقائع التي تخص أُمة الإسلام أولا ـ لأنها هي الأمة التي ستحمل الدعوة للناس كافة ، لذا فيجب أن تكون الدعوة ملبية حاجات من يحملها في كل زمان ومكان ، ليسهل عليهم نقلها من ثم إلى غيرهم ، وهذا ما نبه إليه القرآن بقوله : ﴿ **لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون** ﴾ . آية (١٠) الانبياء

بهذه الآيات المباركات ، تبرز صفة للدعوة تُلازمها في أداء مهمتها الضخمة ، التي تقتدر بها على مواجهة التحديات العقائدية ، وهي مجتمعة تفوق سهام خصومتها إليها في غير رحمة ولا شفقة .

الصفة الرابعة : الهيمنة والعلو :

لا يقصد بهذه الصفة النيل أو الانتقاص من الدعوات التي سبقت دعوة الحق ، فلكل دعوة من تلك الدعوات شخصيتها

المتميزة بخصائص توافق زماناً معيناً ومكاناً معيناً ، لا تصلح بها لغير هذا الزمان أو المكان ، فإذا ذهب هذا الزمان ، أو اضطربت أحوال ذلك المكان ، بحيث تصبح خصائص هذه الدعوة غير صالحة لمواجهة المشكلات والوقائع القائمة فيها ، تقلصت هذه الدعوة ، وزالت بالتدريج ، وانقرضت لتفسح المجال لدعوة أخرى تحل محلها ، وتقوم بدورها في هداية الناس ، وإخراجهم من الظلمات إلى النور .

وقد ظلت هذه الدعوات التي سبقت دعوة الحق ، تؤدي دورها في المجتمعات البشرية ، حتى اكتمل نضجها ، وأصبحت قادرة على أن تحيا في ظل دعوة واحدة باقية على الدهر ، لا تختلف في أصولها وقواعدها الكلية ، تستوعب كل مشكلات الإنسان ، أينما وجد وفي أي زمان ، وحوت كل ما يتفق والفطرة الإلهية التي فطرت عليها من الدعوات التي سبقتها ، وقصرت عن إسناد الإنسان في مسيرته الحياتية ، فكانت دعوة الحق التي هيمنت على كل دعوة سبقتها ، ليكون بها للإنسان شأن باق على الدهر ، وهذا الوصف يقرره القرآن في قول الحق جل جلاله ﴿ **وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه** ﴾ . آية (٤٨) المائدة

ووصف الهيمنة الذي تبرزه هذه الآية ، يثبت ما أشرنا إليه قبلاً ، من أن وصف الدعوة بهذا الوصف لا يقصد به النيل أو الانتقاص من الدعوات التي سبقت دعوة الحق ، وذلك في قوله ﴿ مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ﴾ ، فدعوة الحق جاءت تصديقاً لما قبلها ، ومجرد التصديق مع استيعابها مجتمعةً بأصولها وقواعدها الكلية كافٍ في الإشعار بهيمنة دعوة الحق على سائر الدعوات ، غير أن القرآن يأتي بصريح لفظ الهيمنة ، فلا يبقى عذر للداعية وهو يحمل الدعوة . أن يتردد في صدقها وعلوها وسيادتها .

وتقريراً لهذا الوصف يكون الميثاق والعهد على النبيين أن يؤمنوا برسول يأتي من بعدهم ، وينصروه إن هم أدركوه ، إقراراً منهم واعترافاً بدعوة الحق ، وأنها هي الدعوة التي يجب أن تهيمن وتعلو سائر الدعوات ، وهذا ما يصرح به قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسولٌ مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ﴾ . آية (٨١) آل عمران

فتكون الهيمنة للرسالة وللرسول ، والرسالة هي الدعوة ، والرسول الذي حملها هو الداعية الأول إليها ، وبموت الرسول تنتقل مهمة حمل الدعوة وهي الرسالة التي أنزلت إليه إلى الدعاة من بعده .

ويكـون الإشعار لـلأمم السابقـة بهذا الـوصف للرسالـة وللرسول معاً في كتبهم التي جاءت من عند الله ، كي يؤمنوا به إن هم أدركوه من غير عنت ولا تردد ، وهذا ما نقرؤه في قول الحق عز وجل : ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عنـدهم في التوراة والإنجيـل يأمـرهم بالمعـروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضـع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم** ﴾ . آية (١٥٧) الأعـراف

ومنزلة الشهادة التي حظي بها النبي الكريم على الأمم في الآخرة ، تشعر صراحة بهيمنـة صاحب هـذه المنزلـة على سـائر الأنبياء ، وهيمنة صاحب هذه المنزلة هيمنة للرسالة التي جاء بها ، وهي تعني بالضرورة هيمنة من يأتي بعده من الدعاة لأنهم هم أحق بها وأهلها حين لا تكون نبوة ولا نبي ، وذلك قـوله سبحـانه : ﴿ **فكيف إذا جئنـا من كل أمـة بشهيد وجئنـا بـك عـلى هؤلاء شهيدا** ﴾ . آية (٤١) النسـاء

هذه الآيات تقرر وصفاً يكمل الأوصاف الثلاثة السـابقة للدعوة ، هي في مجموعها أبراز لشخصية الرسالة لتكون منهاجاً واضحاً للدعاة إلى الله .

ثالثاً ـ الأسلوب

إذا كان الداعية في حاجة إلى دعوة يدعو الناس إليها ، وإذا كانت الدعوة في حاجة إلى داعية يحملها ، فالداعية في حاجة إلى الأسلوب الذي يقدم به الدعوة إلى الناس ، إذ الأسلوب هو المفتاح الذي يفتح به الداعية مغاليق القلوب والعقول ، وبغيره يكون الداعية عاجزاً عن حمل الدعوة ، وإن كانت ناصية الملكة العلمية بيده ، يصرفها كيف يشاء ، لأن العلم والمعرفة صفة من صفات الداعية ، وهي جزء من أجزاء تكمل كلها شخصية الداعية ، ولا يستغني احدها عن الاخر ، فإن توفر لدى الداعية واحدة منها فهي واحدة ، أو اثنتان فهما اثنتان ، حتى إذا توفرت جميعها لديه اكتملت شخصية الداعية فيه ، وأصبح قادراً على مخاطبة الناس وتجميعهم حول الدعوة .

لكن هذه الأوصاف لا تُقدر الداعية على إبلاغ الدعوة ، إلا إذا امتلك الأسلوب ، وكما أن للداعية وللدعوة صفات لا يكونان إلا بها ، فإن الأُسلوب لا يقوى الداعية به على عرض الدعوة على الناس إلا بعناصر تجعل الدعوة ميسرة قريبة .

وقد سبق وأن قلنا : إن الدعوة ليست فناً مكتسبا من الفنون ، لكن عرض الدعوة فن عظيم يجب على الداعية أن يُتقنه ، كي يتمكن من القيام بأعباء الدعوة ، فالدعوة أحكام وشرائع ، ونظم وعقيدة ، وأخلاق ومعاملات إلى غير ذلك ، ويمكن أن تقرأ في كلمات مسطورة ، لكنها لا تكون مؤثرة على متلقيها تأثير العرض الحسن ، ولربما كان لحسن العرض ثلاثة أرباع التأثير ، ولحسن أتقان مبادىء الدعوة وشرائعها الربع الآخر .

فكان إذاً حقاً على الدعاة أن يتعلموا فن عرض الدعوة ، وأن يكون قدوتهم في ذلك الداعية الأول محمد صلى الله عليه وسلم ، هذا الوصف نراه واضحاً في قوله عز وجل ﴿ آدع إلى **سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن** ﴾ . آية (١٢٥) النحل

وهنا أُنبه على شيء طالما وقع الكثيرون فيه بالخطأ ، وهو أنهم يفسرون قوله تعالى : (بالحكمة) أي بالرفق واللين ، غافلين في ذلك عن المعنى الحقيقي المراد ، وهو كما فسره جلة المفسرين : (يقول تعالى آمراً رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم أن يدعو الخلق إلى الله بالحكمة ، قال آبن جرير : وهو ما أنزله عليه

من الكتاب والسنة والموعظة الحسنة ، أي بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس ، ذكّرهم بها ليحذروا بأس الله تعالى) .

إذاً فحسن العرض إنما يستفاد من مجموع ألفاظ هذه الآية ، والنظر في معناها الإجمالي ، لا أن يؤخذ معنى كل كلمة منها على حدة ، ونستطيع أن نفهم الرفق واللين من قوله تعالى : ﴿ **بالتي هي أحسن** ﴾ وهذا ما ذكره ابن كثير رحمه الله في تفسيره سورة النحل عند تفسير هذه الآية .

ثم إن حسن العرض لا يتحقق للداعية إلا إذا صيغ الأسلوب صياغة توافق الأحوال النفسية للمخاطبين بالدعوة ، وهذه الصياغة إنما تكون باللغة التي يقتدر بها الداعية على إبلاغ العقول دعوة الحق ، فإذا عمد الداعية إلى لغة غير لغة المخاطبين بالدعوة ، فقد باء بالفشل ، فاللغة هي السبيل الوحيد إلى إيصال المعاني إلى عقول المخاطبين بالدعوة ، ويمكن بها للداعية أن يتعرف على ما عند المخاطبين من مشكلات ، فيضع لها الحلول الصحيحة ، وهذا ما يؤكده القرآن : ﴿ **وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم** ﴾ . آية (٤) إبراهيم

واستجابة المخاطبين للداعية لا تتحقق ، ولا تكون ، إلا إذا فهم المخاطبون لسان الداعية ، وما أرسل الله الرسل وهم

سادة الدعاة إلا ليطاعوا بإذنه ، وأشق شيء على العقل أن يلزم بشيء لا يفهمه ، لخفائه ، أو للجهل باللسان الذي يعرض به ، وفي قول الحق جل جلاله : ﴿ **وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله** ﴾ آية (٦٤) النساء ، إشارة إلى هذا .

ثم إن الأسلوب لا يبلغ بالداعية الغاية المنشودة إلا إذا كان عنصر التدرج ، والقرآن يحدثنا عن هذه العناصر في عدة موضوعات ومن أبرزها مسألة الخمر ، فقد كانت الخمر شائعة في الجاهلية ، وجاء الإسلام والناس غارقون فيها ، فبدأ يسلك بهم طريقاً اعتمد فيه التدرج ، وهي أنجع طريق في القضاء على العادات السيئة المستعصية ، فكان أن نهاهم عن قربان الصلاة وهم سكارى : ﴿ لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما **تقولون** ﴾ . آية (٤٣) النساء

ثم عرض الأمر في صورة سؤال وجواب عن الخمر والميسر وترجيح الإثم على النفع فيهما : ﴿ **يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما** ﴾ . آية (٢١٩) البقرة

ثم وبعد هذا التمهيد يأتي القطع بالتحريم : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه** ﴾ . آية (٩٠) المائدة

ثم إن أسلوب الأداء للدعوة يعتمد الإحاطة بالقضية التي تعرض قبل إصدار الحكم ، وهذا ما علمه الوحي نبي الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ **ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدني علماً** ﴾ . آية (١١٤) طـه

من هذه الآيات يبين للداعية أنه لا يكون قادراً على إبلاغ دعوة الحق إلا بالأسلوب الذي اكتملت فيه عناصر الأداء المتكامل القوي ، من حسن العرض - ومعرفة مداخل النفس البشرية ، واللسان الواضح المبين ، والتدرج .

هذا ما وفق الله لكتابته واستنباطه من آيات الكتاب المبين ، فإن يكن صواباً وحقاً فهو من الله وحده ، وإن يكن غير ذلك فهو من قصور العقل عن إدراك الكمال الذي يعجز العقل عن دركه ، وقد قصدت من الاقتصار في هذا الموضوع على آيات الكتاب فقط ، بيان جانب الثروة العلمية والعملية التي اشتملت عليها آياته ، وهي ثروة تمتد على ساحة الكون كله ، وعلى امتداد الزمان كله ، ﴿ **ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم** ﴾ . آية (٢٧) لقمـــان

ولو شئنا أن نتكلم عن هذه الركائز من خلال السنة المطهرة لاجتمع لنا منها سفر كبير .

والله العظيم أسأل أن يكتب لنا السداد والتوفيق فيما نقول ونفعل ، وأن يجعلنا من الداعين إليه على بصيرة ، وأن يسلكنا في زمرة سيد الدعاة محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفهرس